هبوط قلبٍ في مدرج المطار

٧/ ١١/ ١٤٣٦هـ

كان صاحبي في طريق عودته من سـفرٍ خارجـي، وفي أثناء صعوده للطائـرة؛ أصابه هبوطٌ مفاجئ في القلب، وبعـد الاطمئنان على حالته؛ أقلعت الطائرة، وفورَ وصوله ذهب صاحبي إلى قِسـم الطوارئ في أحَد المستشفيات القريبة من مطار الرياض؛ ليطمئن على حالته قبل شروعه في سفرٍ جديدٍ، ثم بعد يومين ذهب صاحبي لطبيبٍ استشاري متخصص في أمراض القلب، وبعد الفحص تبيّن له أن عنده إجهادًا وتوترًا شديدين، ونصحه الطبيبُ بالتخفيف عن نفسه، وقال له -بعد أن استمع لحالته-: لقد مرّ بي أناسٌ مثلك ممن قال فيهم المتنبي:

وإذا كانتِ النـفـوسُ كبـارًا

تَعبتْ في مرادِها الأجسـامُ

ولكنك يا أخي، لن تسـتطيع أن تأتي على كلِّ أعمالك في وقتٍ قصير، فَقَلّ مَن مات وليس له حاجة ما قضاها، على حدّ قول الصَّلَتان العَبْدي:

نـروحُ ونـغـدو لحـاجـاتِنـا

وحـاجـةُ مَنْ عـاشَ لا تَنقـضي

تموتُ مع المرءِ حاجاتُه

وتَبقى له حاجةٌ ما بقي!

فارفق بجسدِك، وأعطِه حقَّه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا؛ فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه**»[1].

واستطرد الطبيبُ قائلًا: أُكْبِرُ فيكم أخي، هذه الهمّة، ولكن ليس صحيحًا أن تُهمِلوا أجسادَكم، والاستمتاع بحياتكم، وتُقصِّروا في ذَوق متعة الجلوس مع أولادِكم وأهلِكم بحجّة أنكم مشغولون! أو تُهمِلوا رياضةَ أبدانكم ولو بالمشي! حتى إذا سقَطَ أحدُكم بجلطة، أو مرضٍ مُقعِد؛ ذهب يلتمس الحلّ، ويُعيد حساباته! وقد كان بإمكانه أن يتلافى ذلك بفضل الله.

خرج صاحبي من الطبيب، وهو يفكّر في كلام الدكتور الناصح، ويتأمل فيما قاله؛ فوجد أنه بالفعل يحتاج إلى مراجعةِ حساباته فيما يخص زحمةَ جدول أعماله، وإرهاق نفسه بما قد يقطعه عن الاستمرار في العطاء بعد سنوات قليلة، وهو لا يزال بعدُ في قوّته!

هنا، لاح لصاحبي حديثٌ عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة تشديده على نفسه بالعبادة، حين قال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عبدالله، ألم أُخبَر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟**»، فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: «**فلا تَفعل! صمْ وأفطرْ، وقمْ ونمْ؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن**

---

(١) رواه البخاري (رقم١٩٦٨).

لعينـــك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّـــا، وإن لزَوْرك عليك حقًّا، وإن بحسْـــبِك أن تصوم كلّ شـــهرٍ ثلاثةَ أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشدَّدتُ؛ فشُدّد عليّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوةً! قال: «**فصم صيامَ نبيِّ الله داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **ولا تَزِد عليه**»، قلـــت: وما كان صيام نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قال: «**نصف الدهر**»، فكان عبدالله يقول بعدما كَبِر: يا ليتني قَبلتُ رخصةَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!(١).

إن هذه الوصيـــة النبويـــة العظيمة؛ نموذجٌ مـــشرِق لحرص الشرع على توازن الإنســـان بين مطالب الروح والجسد، وعدم النظر إلى الحال الحاضرة فقط، بل يعيـــش وفق قاعدةِ: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»(٢).

إن قصة صاحبي، وما ســـبق من حديث الطبيـــب؛ لا يخصّ العلماءَ المنشـــغلين بتعليم الناس أمرَ دِينهم، ولا الدعاةَ الذين يَتنقّلون بين المدُنِ والقرى، ولا للتجّار الذين ألهاهم الصَّفْقُ في الأسواق، وتتبُّع أخبارِ المال والعَقَار؛ بل هو رســـالةٌ لكل مَنْ يركض لاهثًا في ميادين الحياة، أنِ ارفق بنفســـك! وتذكّر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وجيشُ أســـامة لم يذهب إلى الشـــام، وســـنموتُ ولنا حاجاتٌ وحاجات، ولْنُعطِ كل ذي حقٍّ حقّه: بدَنًا، وعَينًـــا، وأهلًا، وزوجًا، وولدًا، وضيفًا؛ فهـــو أصحّ بدَنًا، وأقوى قَلبًا، وأتقى دِينًا.

---

(١) هذا لفظ البخاري (رقم١٩٧٥).

(٢) روي هذا من قول عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما عند الحارث بن أبي أســـامة (رقـــم١٠٩٣)، وبعضهم يرويـــه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو حديـــث موضوع عليه، والصواب أنه مروي عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ينظر: المطالب العالية (١٣/ ٣١٤).